ملف خاص

في مأساة انتحار عبد الباسط الصوفي

بقلم ممدوح سكاف

«أنا.. قرب السرير، أنسج يا أمُ أمانيَّ من شحوب المساء.
وغداً أنزوي.. وتمشين للقبر وتصحو الخطا على أشلائي».
ـ عبد الباسط الصوفي ـ من قصيدته (أم) عام ١٩٥٦

لو رحنا(*) نتقصى أسباب انتحار عبد الباسط ونحلل بواعثه لكان واجباً علينا قبلئذ أن نتقصى دوافع سفره في بعثة (غينيا) هو وثلاثة من زملائه الأساتذة السوريين لتدريس اللغة العربية هناك في وقت لم تكن نغمة (الإعارة) فيه طاغية فاشية منتشرة كما هي عليه الآن بين محيط المدرّسين إلى الدول العربية أو غيرها، وفي زمن كان يُحسب فيه ألف حساب وحساب للسفر والهجرة ومصاعبها، أي منذ حوالي ربع قرن من أيامنا هذه.

في الجواب عن مثل هذا السؤال تتصدّر عدة عوامل واحتمالات جعلت الشاعر في رأينا يفكّر في الغربة، قد يكون أولها بحثه عن «المناخ الإنساني» الذي سبقه بالتساؤل عنه والحيرة في وجوده، والتشوف اليه صديقه الشاعر الراحل بأربع سنين عبد السلام عيون السود حين كتب يقول ذات مرة: «لشدّ ما أنا خائف. إن معايشة الحياة في نسقها الأعلى وفي عريها الحار الدافىء لا تتوفر إلا لطبقة معينة من الجوف والبلهِ والحمقى والغريبين عنها، أما أبناؤها المزودون بالحاسة الفنية والقادرون على تسجيل انعكاساتها في صدق، فإنهم مبعدون عنها بالضرورة. لسنا أقل موهبة وحمى من بودلير وفيرلين ورامبو، ولكننا مع الأسف لم نتعرض لما تعرضوا له من تجارب ولم نسعد بما سعدوا به من حضارة تتجاوب أصداؤها ترة ملهمة حتى في أضيق الغرف وأحقر الحانات[1]».

ويُعلّق عبد الباسط على أطروحة «المناخ الإنساني» هذه، ويفسرها بقوله: «المناخ الإنساني.. المدينة الفاضلة... الفردوس المفقودة... أين توجد كلها؟.. ستقولون إنها في مخيلة الشاعر فحسب، أما الواقع فغير ذلك، وسواء أكانت في مخيلة الشاعر أم في غيره فإن هذا التصور المثالي موجود في دنيا الناس، هذا التصور هو الذي يعطي الحياة قيمتها الحقيقية، هو الذي يدفع إلى المحاولة النبيلة ويفسّر السؤال الذي نطرحه دائماً: لماذا وجدنا ما دُمنا سنموت؟.. وبدونه تبقى الحياة مجرد عبث فارغ، مجرد آلية حيوانية قِوامها الغرائز، والغرائز فقط... التصور المثالي يفسّر تجربة الشاعر الكبرى لفهم العالم والاندماج الحار به».

ويُخيل إليَّ أن تعبير «المناخ الإنساني» الذي ابتدعه عبد الباسط اصطلاحاً لتصور في عقله، يعني مفهومين جدليين متلازمين قصدهما

(*) هذا المقال ملخص عن كتاب «عبد الباسط الصوفي الشاعر الرومنسي» لممدوح سكاف.

(١) راجع (اثار عبد السلام عيون السود الشعرية والنثرية) من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق عام ١٩٦٨ ـ ص ٩٣ ـ مقاله (في انتظار عودتك سأحرق ألف شمعة وشمعه) ردا على رسالة صديقه عبد القادر الجنيدي.

عبد السلام في كلمته المنوه بها سابقاً، وإن لم يُشرْ إليهما بوضوح كافٍ ـ فقد كان أسلوبه يعتمد على الخطف والومض في نثره وشعره ـ وشاركه بهما في الفهم والتمثل والتجاوب صديقه عبد الباسط، أولهما أن الشاعر العربي الحديث على الأخص لا يخلق شعراً عظيماً إنسانياً عالمي التجربة والتأثير والنفوذ يشكل بحد ذاته ظاهرة أو مدرسة كشعر الشعراء الفرنسيين الرمزيين الذين أشار إليهم عيون السود في مقبوسه الآنف الذكر، لأنه لا يعاني مثلما عانوا من تجارب «تتجاوب أصداؤها ثرة ملهمة حتى في أضيق الغرف وأحقر الحانات» على حد تعبير عبد السلام، ولأنه من جهة أخرى، ليس ابن واقع حضاري مضطرم متقدم متجدد يفجر ينبوع عبقريته أو نبوغه: أي أن داء العقم في الإبداع الفذ عند الشاعر العربي قد يعود في جهة من جهاته وبمعنى من المعاني إلى ضحالة التجربة الحياتية والشعورية أو معاناة المغامرة الوجودية، والانعتاق الإنساني في حياة شاعرنا العربي المعاصر، المكبل بالقيود الاجتماعية والسياسية الصارمة والى التخلف الحضاري المؤسي للأمة التي يعيش بين ظهرانيها.

أما المفهوم الثاني المرتبط عضوياً بالمفهوم الأول فهو جمود الشعر العربي بحد ذاته وسكونيته آنذاك عند حالة من التقليد والاجترار والنمطية والسطحية. فالشاعر عبد السلام، وبعده عبد الباسط، حين افترض مقولة «المناخ الإنساني» كوسيلة من وسائل الخلق الفنّي والإبداع الشعري الفائقين فهو إنما يقصد بذلك الخروج من جفاف المناخ اليابس المتحجر الأصم الذي يعيشه الشعر العربي وعزلته عن التأثير والتأثر، والفاعلية والانفعال بدرجة كافية فيما حوله منذ مئات السنين والتفلت والانطلاق من حياة الشرنقة والتقوقع والانغلاق الذاتي، وهجرها إلى مناخات أكثر عطاء، وغنىً واحتفالاً بقيم الصدق الغَنِيِّ وحتى الحقيقي والخروج بالعبارة الشعرية المستهلكة في نسقها الجاهز المرسوم المتوارث من عالم الاحتفال والتصنع والاستسلام أمام ما قدمته المواهب الماضوية إلى عالم الانبعاث والمخاض والولادة الجديدة، لتصبَّ عبر قنواتها فورة الذات الخلاقة المبدعة وتحمّلها نبضها الإنساني الدفوق وعاطفتها الحميمة الدافئة وخصوصيتها الإيقاعية المتفردة.

لذا فإننا نرى في رحيل عبد الباسط الصوفي إلى (غينيا) وهي في قلب القارة الافريقية وصميمها، شهوة لاكتشاف العالم المجهول ومعاناة لتجربة جديدة، وجرياً وراء الغامض المبهم الصاعق وحلماً شعرياً بتحقيق فرضية «المناخ الإنساني» بل فرصة لا تفوّت لـ (الاندماج الحار بالعالم).

وقد يكون ثاني هذه العوامل التي دفعت الصوفي إلى السفر، الابتعاد عن المدينة المحنطة حمص، تلك التي قتلت له بتقاليدها المتكلسة البالية وعاداتها العجفاء المنخورة ومواضعاتها الاجتماعية الصلبة الجامدة (وخاصة في أواخر الخمسينات). أية إثارة أو أية حادثة يمكن لها أن تتحدر من وتر أو تنداح على لوحة أو تنساب في قصيدة.

ويجاري عبد الباسط صديقه عبد السلام فيكتب بعده عن مدينته (حمص) قائلاً: «عدتُ إلى بلدتي حمص، إلى هذا الضريح الكبير: الأزقة الطويلة الضيقة والحجارة السوداء المستقرة في أمكنتها التي تفلت فيها من الطين الجاف وتهوي إلى أمها الأرض، والصبية الصغار يطوفون بالحي. . . . الخ. . »

ويدين متابعاً، مقاهيها التاريخية السقيمة بلهجة عنيفة واخزة «هذه المقاهي الشرقية المفعمة بالدخان والضجيج السآمة، يعلو الصدأ رويداً رويداً على النفوس الرهيفة الموهوبة، وتعلو طبقات الصدأ، وتتآكل النفس الإنسانية. . ».

وقد يكون ثالث هذه العوامل محاولة الهرب من الخيبة المتقلبة العواطف، المزاجية الطبع، المعتدة بنفسها، المفرطة الذاتية، ومن الأهل التقليديين الذين لم يستطيعوا فهم نفسيته المرهفة الغاضبة في آن واحد، والتعامل معه كشاب جديد التوجه، ثائر التفكير، مضطرم المشاعر، يريد التحرر من الأسر الاجتماعي والتمرد على مظاهر الزيف والنفاق والأثرة والتهالك على المادة، وعبودية الشكليات التي تسود الحياة البشرية والعيش بصدق حار وعراء مطلق ومواجهة صميمية مع البشر والأشياء والكائنات الحية الوجودية وحتى الجمادات، أي ـ بكلمة واحدة ـ رفضه للمجتمع الجليدي أو هربه منه إذ «أن صراع عبد الباسط مع عواطفه الثائرة المتمردة الصارخة في كيانه باستمرار والتي جعلته يشعر بتهالك ضعفه البشري واختلال عميق بين قواه الذاتية التي تقيم توازن الإرادة فيعيش في فوضى ويتعثر بادفاعاته وينتهي إلى حالة مضحكة من اليأس وعدم المبالاة، والإصرار الحزين على تهديم نفسه، إن هذه العوامل والمشاعر ذاتها قد قوّت فيه الرغبة إلى الفرار من العالم الواقعي واللجوء إلى العوالم الخيالية». وقد كان لموقف حبيبته السلبي من قضية حبهما، ولامبالاتها بشأنها، وعدم اتخاذها أي خطوة جريئة متضامنة معه من أجل انتصار هذا الحب وانتهائه نهاية طبيعية سعيدة يكون قوامها الزواج، ووقوفها عاجزة عن الإتيان بأية حركة ايجابية لديمومة هذه العاطفة النبيلة التي تجمع بينهما وتطويرها نقلة نقلة إلى الأمام، كان لهذا كله أثره العميق المؤلم في نفس عبد الباسط ودفعه إلى الرحيل بعيداً علّه ينسى صورة هذا الحب القتيل الفظيع، هذه الجثة الزرقاء الباردة.

والآن بعد أن عرضنا لما افترضناه أسباباً ودواعيَ لسفر عبد الباسط لأول مرة خارج بلده سورية وتوجهه إلى (غينيا) بمحض إرادته للعمل مدرساً في مدارسها والإقامة الطويلة، وليس للنزهة الترويحية والسياحة العابرة، بماذا نفسر انتحار شاعرنا السريع بعد وصوله إلى مقر وظيفته بمساحة زمنية ضئيلة ومحدودة؟

طبعاً أولئك الذين عايشوا الفقيد كإنسان أولاً وكشاعر ثانياً ولا

يمكن الفصل قطعاً بين هاتين الصفتين لأنهما كل مُتشيّءٍ مُتَعضٍّ (وأنا واحد من هؤلاء المعايشين فقد كان عبد الباسط صديقي لمدة سنتين متواصلتين على الرغم من أنه كان يكبرني بحوالي سبع سنوات ولو أن المصادفات سمحت لكان أستاذي في المرحلة الاعدادية) أقول إن الذين عايشوا الصوفي وخبروه وفهموه يعرفون أن شخصيته فريدة متميزة حقاً، أو نسيج وحده كما يقال عادة. كان شاباً حساساً.. شاعراً يحاول أن يفتح باب الجديد ويخترق جدار التقليد ويبشر ببنيان أغر بين ركام من الأشباح والآثار والعاديات البشرية في وسط مواضعاتها الاجتماعية الرثة.. وكان يعيش تجربة نفسية مدمرة حارقة في حياته التي كانت تبغي كسر القيود وتحطيمها في مجتمع محافظ مقيد بمائة قيد وقيد، وكان محباً صادقاً في حبه، وعاشقاً صادقاً في عشيقه، ولكنه كان مُحبطاً في هذا الشعور الحي الوقاد أو العاطفة النبيلة السامية. ليس بسبب منه هو، ولا بسبب منها هي، وإنما في الحقيقة، بسبب وضع اجتماعي مُرْبِك جداً له خصوصيته وطقوسه ونواميسه المتشددة لكليهما، ولا ذنب لهما فيه ولا علاقة.. إنه اختلافهما في الدين، فهي مسيحية وهو مسلم، وأهلها متزمتون متشددون. وأهله قد يكونون أكثر تزمتاً وتشدداً، وليس بيده هو من الأمر شيء طالما أنها لا تستجيب لحلوله. ولا تطاوعه على رأيه. والإكراه في موضوع حساس كهذا لا يجدي، ولا يمكن أن يفكر به مثقفان. هو يحمل الآن إجازة في اللغة العربية وهي في سِنّه، وتحمل إجازة في اللغة الانكليزية.. كان شاعراً قد عانى الحب وعاشه وقاسى منه بدءاً من أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات كما تدلنا على ذلك رسائله، أي في وقت كان فيه ليس المجتمع السوري فحسب، بل الشعر السوري الحديث يحمل دمغة الحرمان الاجتماعي والقهر النفسي من مقولة (الحب) من همسه.. من إشاعته.. ويشكو حتى الصميم (عقدة فرويد) ومركبات اللاشعور. فالخيال الشعري كان يغصّ ويشرق بطيف امرأة، والمشاعر فيه «تمثيل» لا يعكس الرغبة فيها.. إنك تقرأ الحرمان في القصيدة من المرأة لا الغزل بالمرأة، وترى التوق إلى الحب، لا الحب نفسه. إنها حالة عصية حقاً يعيشها شاعرنا ويستسلم أمامها دون أن يستعمل أي سلاح.. الجولة خاسرة، والمنتصر هو المجتمع، والضحية قلب الشاعر.

من المحتمل أن هذه الاحباطات التي عاناها الشاعر وأشرنا إلى أهمها أوحت له أنّ الغربة قد تكون ـ بما هي تفلت وانطلاق من أسر الأغلال الصارمة ـ شكلاً أو سبيلاً للهرب من الواقع الآسن الذي يعيش فيه بكل ثقله ووطأته ورتابته. واقع المأساة البشرية والتخلف الاجتماعي والجوع الحضاري في وطنه الخارج حديثاً من ربقة الانتداب الفرنسي آنذاك.. لذلك أنا أعتقد ـ أو بلهجة أقل ثقة وإيماناً ـ أو بالأحرى يخيل إليّ أن انتحار عبد الباسط قد يجوز أن نفسره على أنه نوع من أنواع الاحتجاج المهزوم ضد بؤس الحياة ـ هذا النشاز المرعب ـ وخواء العالم وفراغ الوجود بالنسبة إلى حساسية شاعر مرهف الشعور مثله... وهو في الوقت ذاته قد يكون صرخة نفس وحيدة مخذولة مقهورة خائبة في وجه آفات الظلم والظلام المخيمين على دنيا الناس التعسة، نفس موهوبة خيرة معطاء ضائعة الأثر في محيطها، ذلك أن «أثر الوسط في تكوين المواهب العالية كبير جداً، فالنبوغ ظاهرة نفسية اجتماعية معاً، ولذا كان الوسط.. عاملاً في تفتح الموهبة ونموها وامتدادها تارة. وعاملاً على خنقها وتبديدها وجعلها عقيمة غير صالحة. وإذا استطاع بعض أرباب العقول الخارقة ـ بفضل الظروف المؤاتية ـ إثبات وجودهم من خلال الحجب والعثرات والمثبطات فإن كثيرين منهم لم يستمتعوا بالنمو الكامل، بل ظلوا في صراع مع هذا المحيط، نزّاعين إلى الإفلات من قبضته، تواقين إلى جواء جديدة ينطلقون فيها».

وعبد الباسط طبعاً كانت فيه بذور النبوغ، لكنه كان يريد لهذه البذور أن تنمو وتتأصل وتتأكد، وقد خُيل إليه أنّ في السفر تفتيحاً لهذه البذور لتصير براعم ثم لتثمر وتعطي أكلها. لكنه في جو الغربة ـ وهو جو صعب وخانق وضيّق ومشحون بتوترات الهبوط النفسي لأنّ الشاعر يعيش في بلاد تبعد آلاف الأميال عن بلاده وفي مجتمع لا تقل غرابته ووحشته عن بعده وبين تقاليد تختلف جذرياً عن تقاليد أرضه ووطنه وبين قوم يتكلمون لغة لا تمت بأية صلة إلى لغته وفي وسط له مشكلاته الخاصة به ـ شعر لا بدّ بالحنين والشوق إلى الوطن، إلى الأهل، إلى الأصدقاء، إلى الحبيبة... إلى الأجواء الأدبية، إلى مدينة الحجار السود حمص وترابها وغبارها وبساطة سكانها وطيبتهم ووداعتهم. ففي رسالة كتبها من (لابي) إحدى مدن (غينيا) مؤرخة في (٥ ـ ٦ ـ ١٩٦٠) وموجهة إلى صديقه وصديقي الحميم الشاعر الحمصي السابق غسان طه الذي هجر الشعر واتجه إلى المحاماة يقول: هبت عليّ نسائم ربيعية واستروحت عبق حمص العتيق المتكدس على الشرفات والحائم على الدروب، وعندما لم يتمكن من تحقيق رغبته أو حلمه، أو أمله بالعودة، والغربة صارت سجناً والمدينة الكريهة اليه حمص أضحت جنة فقد وقفت ـ كما قيل وأشيع بعد وصول جثمانه إلى بلدته ـ أمام رجوعه حوائل إجرائية سببها روتين سفارة الجمهورية العربية المتحدة في كوناكري التي كان يديرها سفير مصري يبدو أنه لم يتفهم وضع شاعرنا فلم يمد له يد المساعدة، ولم يُعنه على الرجوع إلى وطنه. وعندما لم يستطع تحقيق المصالحة على الأقل وليس التواؤم والتأقلم مع واقعه المستجد هناك بكل ما فيه من خرافة وتطرف، أقول عندما لم يحصل شيء من هذا كله، يئس من نفسه ومن جميع ما حواليه، وضاق عليه الوجود بما رحب على الناس، وفقد سيطرته على قدراته العقلية، نحر نفسه وخسر العالم وربح صدقه الإنساني العاري مع ذاته، ويا لها من مأساة.

كان عبد الباسط قد كتب في أول رسالة للمهمته عام ١٩٥٤، أي قبل أن ينتحر بست سنوات موضحاً لها معنى الرجولة وصفاتها

الحقة كما يفهمها، وكان له من العمر آنذاك ثلاث وعشرون سنة «إن الرجل يا صديقي لا يهرب.. بل يقرر الصمود حتى النهاية، وأول واجبات الرجل أن يواجه كل ما يعترضه بصبر وشجاعة. ليس للعاصفة الهوجاء إلا أن تتحطم تحت أقدام الصخور الصامدة، وليس للصخور إلا أن تقف في وجه العواصف وإذا ما كان ثمة من فضل فإنما يرجع إليك وحدك يا صديقي...»

لكن عبد الباسط للأسف لم يستطع أن يكون في غربته حتى وهو في سن الشباب الناضج ذاك الرجل الذي رسم صورته بقلمه فانحنى أمام العاصفة الهوجاء العاتية انحناءة لا انتصاب بعدها، لقد شعر بغربة روحية وراودته ذكريات الوطن العزيز والحب النبيل الذي خلفه وراءه ظلا هامداً، وغمرته صورة الأصدقاء والأحباء والأهل الأعزاء، فهبّ من بعدُ يريد العودة ولكنه لم يستطع كما أوضحنا سابقاً وعندئذ حقق حريته كمخلوق بشري حر على طريقته الخاصة، ووجد الطريق الوحيد الحاسم للخلاص فانتحر... وقد حدس قدره هذا في قصيدته الرائعة (مكادي):

يقولون:

هَامَ بافريقيا عاشقٌ في ضميرِ البحار وغابْ
يُغَلْغِلُ في الأُفْقِ
أَسْوَدَ كالقارِ، عُرْيَانَ، يَلْطُمُ صَدْرَ العُبَابْ
يَطيرُ مع الوَهْمِ، تَرْكُضُ عيناه
ينصل من سَدِفَيّ الإهَابْ:
أَضَاعَ على المَوْجِ أَيَّامَهُ
فكان رَحِيلاً بغيرِ إيابْ

صدر حديثاً

ايفي بريست

رواية المانية

تأليف: تيودور فونتانه

ترجمة: سناء كرم

هذه الرواية التي تعتبر رائعة فونتانه الكاتب الألماني الشهير هي أيضاً إحدى روائع المدرسة الواقعية الألمانية. كما اعتبرها النقاد بمستوى «آنا كارانينا» لتولستوي و «مدام بوفاري» لفلوبير.

أما شخصية ايفي، شخصية تجتذب القارىء بتصرفها الطبيعي والعفوي، فقد نشأت في أجواء الحياة الريفية الحرّة والبريئة حيث أغرم بها البارون «انشتاين» وتزوّجها، وتذهب «ايفي» بصحبة زوجها إلى مكان بعيد على بحر البلطيق، فتعيش في حالة فراغ دائم. وتنجرف هناك في علاقة مذنبة تجعلها تعسة. وقد شاء القدر أن يكشف زوجها عن علاقتها السرية، فكان أن انقلبت حياة «ايفي» رأساً على عقب. ونحن كقراء ندخل إلى صميم قلبها، نشاطرها أحزانها ونتعاطف معها. وبعد سنين من الشقاء والنفي، تتّصل من جديد بالطبيعة الجميلة، بفضل حياة حرّة تتصالح فيها مع نفسها ومع العالم. وفي النهاية تموت إيفي مذنبة بريئة.

منشورات دار الآداب